

تَكْوِينُ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ قَبْلَ الْإِسْلَامِ (٣)

الدكتور رشاد محمد خليل

الطبعية) وهكذا . . . وليس معنى هذا انتنا نريد ان ننشيء علماً عربياً في هذه الابواب ذلك ان المادة العلمية التي سننشر عليها منها بلغة لا يساوي شيئاً بجانب هذا الانقلاب الهائل الذي حقته العلم الحديث ولكن أهمية هذا التصنيف هو اعادة دراسة الفكر العربي دراسة علمية موضوعية على أساس من منافع مقررة لتحديد مكانه التاريخية وكشف أسلوبه في النظر والتفكير وفهم الوجودحيط بها ، وعرض هذا الفكر بصورته الجديدة والمدرورة على الاجيال العربية التي تجهل هذا الفكر جهلاً تاماً بل والتي لا تعرف ولا تتصور انه قد كان للعرب قبل الاسلام فكر وعلم على الاطلاق ثم لعرض هذه الصورة على العالم ليصبح موقفه من الفكر العربي ولি�صبح تاريخه للحضارة والعلوم الإنسانية لأن جميع الذين أرخوا للنكر الإنساني وعلمه لم يضعوا في اعتبارهم قط احتمال أن يكون للعرب قبل الاسلام علم وفكر على الاطلاق والذي يلقى نظرة على أي موسوعة تورخ لتاريخ الفكر وعلومه لن يخرج بغير هذه النتيجة ، ان الفكر العلمي بالمعنى الصحيح تراث يوناني نقله المسلمون الى اوربا .

يلحق بفصل التجريد والمجاز موضوع هو ثمرة من ثمرات التجريد والمجاز وهو موضوع كان يسمى تديباً فقه اللغة وهو شيء آخر غير فقه اللغة في الدراسات اللغوية الحديثة وقد جمع بعض علماء اللغة قدি�ماً تحت عنوان (فقه اللغة) مادة لغوية ربواها ترتيباً خاصاً أطلق عليه أبو منصور الشاعلي اسم فقه اللغة وهذا الموضوع على جانب كبير من الأهمية وإن كان اللغويون أنفسهم لم يجمعوا هذه المادة على أساس علمي وإنما جمدوها وربواها على أساس لغوي صرف مما جعلها في الفالب ناقصة ومبتورة ومشوهه ولكنه رغم القصور الذي في هذه المادة فهي تلفت نظرنا إلى القيمة العلمية للمادة اللغوية الموجودة في بطون المعامج والتي ضرورة محاولة الاستقادة منها باعادة ترتيبها ترتيباً يهتم باستخلاص المادة العلمية منها وذلك بجمع كل المادة التي تتعلق بموضوع واحد في باب خاص بهائم الابواب التي تتنمي لعلم واحد تحت باب عام خاص بهاوى ان جميع المادة الخاصة بعلوم الحيوان مثلما تحت (علم الحيوان) وجميع المادة الخاصة بالنباتات تحت (علم النبات) وجميع المادة الخاصة بالطبيعة تحت (علم

كتب فقه اللغة :

- من هذه الكتب التي تخصصت في موضوعات بعضها
- كتاب الأبل** لأبي حاتم السجستاني (— — 248) وللأصمعي (122 — 216)، ولأبي عبيدة (110 — 206)، وللنضر بن شمبل (122 — 203)، ولأبي زياد الكلبي، ولأحمد بن حاتم الباهلي (— — 231).
- كتاب الخيل** لابن قتيبة (213 — 276) وأبي الإعرابي (150 — 231)، وأبي عبيدة، وأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي (— — 245)، وأبي محمد محمد بن هشام الشيباني (— — 245)، ولأحمد ابن حاتم.
- وكتاب الغنم والشاة** لأبي الحسن الأخفش (— — 215)، وللنضر بن شمبل وللأصمعي.
- وكتاب الوحش للأصمعي**، ولأبي زيد (119 — 215) ولأبي حاتم السجستاني.
- وكتاب الطير** لأبي حاتم السجستاني، والنضر بن شمبل، وأحمد بن حاتم الباهلي.
- وكتاب البازى والعام والحيات والعقارب** لأبي عبيدة.
- وكتاب الفرس للأصمعي**.
- وكتاب النحل والحشرات** لأبي حاتم السجستاني.
- وكتاب النحل والعمل للأسمعي (1)**.
- والذى يستلفت النظر ان هذا النوع من التصنيف رغم قصوره يضع تحت ايدينا مادة خصبة لدراسة اسلوب العرب في تتبع مختلف الظواهر التي عرفوها وفي ملاحظتها وترتيبها وتصنيفها.
- وقد جمع ابو منصور هذه الظواهر في ثلاثة بابا كل باب مقسم الى عدة فصول تتراوح بين ثلاثة فصول وستين فصلا في الباب الواحد.
- وقد رتب ابو منصور ابوابه على الوجه الآتى:
- الباب الاول** : في الكلبات وفيه اربعة عشر فصلا.

(1) مقدمة كتاب الحيوان للجاحظ ج 1 ص 14 — 16 نقل عن وفيات الاعيان لابن خلكان وبغيضة الوعاء للسيوطى ونزهة الاباء ونهرس بن النديم وكشف الظنون ومعجم الادباء.

وقد نهل الاسكافي شيئاً قريباً من هذا في كتاب مبادئ اللغة وان كان لم يقسم أبوابه الى فصول كما نهل الشعالي وكتلك نهل ابن سيده في كتابه المخصص وقد قام باعادة ترتيبه وتنسيق مادته بعد الاستعاضة بالقاموس المحيط وفقه اللغة والمصاحح واللسان والاساس وغیرها من كتب اللغة — عبد الفتاح الصعیدی وحسین یوسف موسی فی كتاب الانصاف .

ونخرج من هذه التصانیف بأن العرب قد لاحظوا كائنة الظواهر التي وقعت تحت ملاحظتهم — حسیة كانت او معنوية — وحضروها ورسموها في مختلف احوالها ومن مختلف جوانبها .

اما من ناحية العموم والشمول كالكليات من سماء وارض وحيوان ونبات .. الخ او من ناحية اختلاف الاحوال واختلاف الاسماء والصفات باختلافها كأن يقال : كاس اذا كان يشرب فيها والا فهى زجاجة .

وكان يقال : الصبح في اول النهار والغسق في اول الليل وذلك في اليوم الواحد .

او من ناحية الحجم كالكبير والعظم او الضخامة والصغر .. الخ .

او من ناحية الهيئة : كالطول والتصر .. الخ .

او من ناحية الشدة : كالليس والليونة والشدة والرخاوة .

او من ناحية الكثرة والقلة .

او من ناحية التضاد كالبياض والسوداد .

او من ناحية السعة كالخلاء والاملاء .

او من ناحية اللون او النمو او الصوت .. الخ .

ولم يلتفت شيء من ملاحظتهم ما وقع تحتها كما ان ملاحظتهم للظواهر لم تكن سطحية او عابرة تكتفى بتوصيف الشيء في عمومه وبجلته .

ونضرب لذلك مثلاً باحدى الظواهر الحسية وهي : تفصيل كمية المياه وكيفيتها .

الباب السابع عشر : في ضروب الحيوانات وأوصافها ونحوه تسعة وثلاثون فصلاً .

الباب الثامن عشر : في الاحوال والاعمال الحيوانية وفيه سبعة وعشرون فصلاً .

الباب التاسع عشر : في الحركات والاشكال والهيئات وضروب الفرب والرمي وفيه أربعون فصلاً .

الباب العشرون : في الاموات وحكاياتها وفيه ثلاثة وعشرون فصلاً .

الباب الحادى والعشرين : في الجماعات وفيه اربعة عشر فصلاً .

الباب الثاني والعشرين : في القطع او الاتقطع والقطع وما يتارها من الشق والكسر وما يتصل بهما وفيه سبعة وعشرون فصلاً .

الباب الثالث والعشرين : في اللباس وما يتصل به والسلاح وما ينضاف اليه وسائر الالات والادوات وما يأخذ مأخذها وفيه تسعة وأربعون فصلاً .

الباب الرابع والعشرين : في الاطعمة والاشارة وما يناسبها وفيه سبعة عشر فصلاً .

الباب الخامس والعشرين : في الآثار الطلوبية وما يتلو الامطار من ذكر المياه واماكنها وفيه ثمانية عشر فصلاً .

الباب السادس والعشرين : في الارضين والرمال والجبال والاماكن والمواضع وما يتصل بها وفيه سبعة عشر فصلاً .

الباب السابع والعشرون : في الحجارة وفيه ثلاثة فصول .

الباب الثامن والعشرون : في النبت والزرع والنخل وفيه سبعة فصول .

الباب التاسع والعشرون : في ما يجري مجرى الموازن بين العربية والفارسية وفيه خمسة فصول .

الباب الثلاثون : في فنون مختلفة الترتيب من الاسماء والاعمال والاصفات وفيه تسعة وعشرون فصلاً .

فإذا كان باردا فهو قار .
 ثم خسر .
 ثم شَيْمَ .
 ثم ثُنَانَ .
 فإذا كان جاماً فهو قارس .
 فإذا كان سائلاً فهو شرب .
 فإذا كان طرياً فهو غَرِيشَ .
 فإذا كان ملحاً فهو زَعَاقَ .
 فإذا اشتدت ملوحته فهو حُراقَ .
 فإذا كان مُراً فهو قُماعَ .
 فإذا اجتمعت فيه الملوحة والمراة فهو أُجاجَ .
 فإذا كان فيه شيء من العذوبة وقد يشربه الناس
 على ما فيه فهو شَرِيبَ .
 فإذا كان دونه في العذوبة وليس يشربه الناس
 الا عند الضرورة وقد تشربه البهائم فهو شَرُوبَ .
 فإذا كان عذباً فهو فراتَ .
 فإذا زادت عذوبته فهو نُقاحَ .
 فإذا كان زاكياً في الماشية فهو تَسِيرَ .
 فإذا كان سهلاً سائفاً متسلسلاً في الطريق من طيبة
 فهو سلسل وسلسلَ .
 فإذا كان يمس الغلة فيشفيها فهو مَسُوسَ .
 فإذا جمع الصفاء والعذوبة والبرد فهو زلالَ .
 فإذا اكثر عليه الناس حتى نزحوه بشفاههم فهو
 مَشْفُوه ثم مَثُود به ثم مَضْغُوف ثم مَمْكُوك ثم مَجْمُوم
 ثم مَنْتوص وهذا عن ابن عمر الشيباني (2) .
أمثلة لبعض التظواهر المعنوية:
 رجل مُعْجِبَ .
 ثم تائِهَ .
 ثم مَزْهُو من وَمَنْخُو من الزهو والنخوة .
 ثم باذخ من الْبَذْخَ .
 ثم اشيد اذا كان لا يلتقي يمنة ويسرة من كبره .
 ثم مُنْغَطِرٌ اذا تشبه بالقطارة كثيراً .
 ثم مُنْغَطِرس اذا زاد على ذلك (3)

اذا كان الماء دائمًا لا ينقطع ولا ينجز في عين
 او بشر نهر عِدَّ .
 فإذا كان اذا حرك منه جانب لم يضطرب جانبه
 الآخر فهو كُتَّ .
 فإذا كان كثيراً عذباً فبُيو غَدَق وقد نطق به القرآن .
 فإذا كان مفترقاً فهو غَزَّ .
 فإذا كان تحت الأرض فهو غَورَ .
 فإذا كان جارياً فهو غَيلَ .
 فإذا كان على ظهر الأرض يسكن بغير الله من دالية
 او دولاب او ناعورة او مُنْجَتون فهو يسِيعَ .
 فإذا كان ظاهراً جارياً على وجه الأرض فهو معين
 وسَيْمَ وفي الحديث (خير الماء السَّيْمَ) .
 فإذا كان جارياً بين الشجر فهو غَلَّ .
 فإذا كان مستنقعاً في حفرة او نقرة فهو ثَقَبَ .
 فإذا نبط من قعر البئر فهو نَبَطَ .
 فإذا غادر السبيل منه قطعة فهو غَدَيرَ .
 فإذا كان الى الكعبين او الى انصاف السوق فهو
 مَخْضَاحَ .
 فإذا كان قريباً للقمر فهو شَحْلَ .
 فإذا كان قليلاً فهو ضَهْلَ .
 فإذا كان أقل من ذلك فهو وَشَلَ .
 فإذا كان خالساً لا يخالطه شيء فهو قرَاحَ .
 فإذا وقعت فيه الاتمضة حتى كان يتدق فهو سَيْمَ .
 فإذا خافتته الدواب فذكرته فهو طَرْقَ .
 فإذا كان متغيراً فهو مَجِسَ .
 فإذا كان نتنا غير انه شروب فهو آجِنَ .
 فإذا كان لا يشربه أحد من ننته فهو أَيْنَ .
 فإذا كان بارداً مفتنا فهو غَسَاقَ (بتضليل السين
 وتخفيفها) ، وقد نطق به القرآن .
 فإذا كان حاراً فهو سُخْنَ .
 فإذا كان شديداً الحرارة فهو حَمِيمَ .
 فإذا كان مَسْخَناً فهو مُوعَزَ .
 فإذا كان بين الحار والبارد فهو فَاتِرَ .

(2) فقه اللغة للشعالبي من 289 : 129 .

(3) نفس المصدر السابق من 154 .

العبوس :

اذا روعى ما بين عينيه فهو قاطب وعابس .

لماذا كسر عن انبيله مع العبوس فهو كالع .

لماذا زاد عبوسه فهو ياسر ومكتبه .

لماذا كان عبوسه من المم فهو ساهم .

لماذا كان عبوسه من الفيظ وكان مع ذلك منتضا

فهو مبرظم عن الليث عن الاسمي (4) .

كيفية النظر وهيئة في اختلاف احواله :

اذا نظر الانسان الى الشيء بجامع عينه قبل رأمه

فان نظر اليه من جانب اذنه قبل لحظه .

فان نظر اليه بمجلة قبل لمحة .

فان رماه بيصره مع حدة نظر قبل حده بطريقه

وفي حديث ابن سعد رضي الله عنه حدث القوم ما
حججوك ببصراهم .

فان نظر اليه بشدة وحدة قبل ارشقه وأسف
النظر اليه وفي حديث الشعب انه كره ان يُسيف الرجل
نظرة الى امه واخته وابنته .

فان نظر اليه نظر المعجب منه او الكاره له او
المبغض ايضا قبل : شفته وشقق اليه شفونا وشققنا .

فان اغاره لحظ العداوة قبل نظر اليه شررا .

فان نظر اليه بعين المحبة قبل نظر اليه نظرة ذى
علق .

فان نظر اليه واضعا يده على حاجبه مستظلا
بها من الشميس ليس بين المنظور اليه قبل استكه
واستوضكه واستشرقه .

فان نشر الثوب ورفعه ليتظر الى صفاتته
وسعافته او يرى عوارا ان كلن به قبل استشقة .

فان نظر الى الشيء كاللحمة ثم خفي عنه قبل لاحه
لوحة كما قال الشاعر : وهل تنفعني لوحة لو الوحها

فان نظر الى جميع ما في المكان حتى يعرفه قبل
نفسه نفسا .

(4) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

(5) فقه اللغة 113 - 114

فان نظر في كتاب او حساب ليهبه او ليستكثف
صحته وستمه قبل تصفحة :

فان فتح جميع عينيه لشدة النظر قبل حدق .

فان لا اهاما قبل ترق عينيه

فان انتلب حملان عينيه قبل حمله .

فان غلب سواد عينيه من الفزع قبل ترق بصره .

فان فتح عين مخزع او مهدد قبل جمع .

فان بالغ في فتحها وأحد النظر عند الخوف قبل
حدج ونزع .

فان كسر عينه في النظر قبل دنشس وطرنس من
ابن عمرو فان فتح عينيه وجعل لا يطرن قبل شخص
وفي القرآن شاخصة ابصارهم .

فان ادام النظر مع شكون قبل اسجد عن ابن
عمرو ايضا (5)

فان نظر الى افق الهلال لليلة ليراه قبل : تبصره

فان اتبع الشيء بصره قبل اثاره بصره (5) .

* * *

يلاحظ على هذه الظواهر انها تتبع في طريق
اللاحظة والاستقصاء والرمد والتسجيل خطوات
المنهج العلمي التجربى الحديث ولهذا كما نعتقد دلالة
علمية خطيرة لانها تضمنا امام عقلية علمية تجريبية
تضمنت فيها الى حد كبير ملكات عقلية متعددة من قوة
الادراك وشموله وسعته ومن سعة الخيال وتنوعه
ومن عمق اللاحظة ودقتها وتفاذهما ومن التدرة على
الترتيب والتتنسيق والتوصيف والتبويب .

هذا على الرغم من ان علماء اللغة يهتموا بالقيمة
العلمية لهذه المادة وانما اهتموا بقيمتها اللغوية ولو
انهم التفتوا الى القيمة العلمية التي التفت اليها الجاحظ
في كتابه الحيوان لوصل اليها علم كثير وتحقق في مجال
الظواهر التي وقعت تحت ملاحظتهم .

وابلغ دليل على ماتقول هو ذلك المرجع التفصي
في علم الحيوان الذى بذل فيه الجاحظ جده واستوعب
فيه جل المادة المعروفة في عصره في هذا الباب مما نقل
عن اليونان وغيرهم بالإضافة الى المادة العربية وفي هذا
يقول الجاحظ وهو حجة في هذا الباب تحت عنوان

أيدي علمائها المشهورين من أمثال الحسن بن الهيثم وجابر بن حيان والرازى وابن سينا والبيرونى والادريسى . وغيرهم وانما يجب ان يرجع به الى ما قبل الاسلام حيث وضع الاساس التجريبى وتكونت العقلية التجريبية واذا كان التجريب قبل الاسلام لم يأخذ طابعا معمليا ولم يتم على اساس وضع النظيريات وانشاء الفروض والتأسيس عليها واستخلاص النتائج العلمية فان ذلك لا يمكن ان يتقلل من قيمة المرحلة السابقة على الاسلام لانها المرحلة التى اختبرت ووضحت فيها المكالات العقلية الاساسية الازمة لهذا النوع من الدراسة والتى استطاعت حين اتيحت لها الفرصة في ظل الحضارة الاسلامية وبعد ترجمة العلوم ان توفرت كلها في صورة النظيريات العلمية والمدرسات المعملية التي ازدهرت بها جوانب كثيرة من جانب المعرفة التطبيقية في الكيمياء والبصريات والهندسة والطب والجغرافيا والفلك .. الخ على ايدي العلماء المسلمين.

معرفة العرب والاعرب بالحيوان : وقل معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقراناه في كتب الاطباء والمتكلمين الا ونحن قد وجدناه او قريبا منه في اسفار العرب والاعرب وفي معرفة اهل لقتنا وللتى

ولولا ان يطول الكتاب لذكرت ذلك اجمع . وعلى انى قد تركت تفسير اشعار كثيرة وشواهد عديدة مما لا يعرفه الا الرواية التحرير من خوف التطويل (6) .

وهذا الذى نراه يحملنا على ان نلتف النظر الى انه اذا تأكد فضل العرب على الحضارة الفربية واذا تأكد ان العرب هم الذين احيوا وأسهموا في ارساء قواعد المنهج العلمي التجريبى والتطبیقى وذلك ما تناوله علماء ومؤرخون غربيون بالحديث والدراسة فان ذلك لا يجوز ان يرد فقط الى الحضارة المعرفية الاسلامية التي نضخت في ظلها العلوم التجريبية على

(6) الحيوان ج 3 ص 268